

جهود الدولة العثمانية فى تأمين الطريق البحرى
من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
- دراسة تاريخية تحليلية -

إعداد الدكتور

عايض بن خزّام الروقى

أستاذ مشارك التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

oboeikan.com

جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين - دراسة تاريخية تحليلية -

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد كان تاريخ الدولة العثمانية في مراحلها الأولى يمثل ملحمة جهادية صادقة ، خاض فيها سلاطين آل عثمان الجهاد الإسلامي في أبهى صورته ، حيث خاض سلاطين الدولة العثمانية معارك حاسمة لنصرة دين الله والحفاظ على مقدسات الإسلام ومقدرات المسلمين ، وحافظوا على الثغور الإسلامية التي كانت عرضة للهجمات الأوروبية المستمرة ، وما لبث العثمانيون أن اجتازوا البحر ودخلوا غاليبولي^(١) متخذين منها نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية وفتوحاتهم المتتابعة داخل أوروبا ، وبسطوا

(١) غاليبولي - كليبولي : مدينة ذات موقع استراتيجي ، لها أهمية كبيرة في المعارك الحربية ، إذ إنها تقع على ضفة مضيق الدردنيل - في الجانب الأوروبي - وتبعد عن مدينة أدرنة حوالي مائة وأربعين كيلومتراً ، ولأن مضيق الدردنيل هو المر الوحيد بين بحر مرمره وبحار أوروبا فقد اكتسبت مدينة غاليبولي هذه الأهمية الاستراتيجية ، انظر : محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حفي ، هامش ١ ، ص ١٢٦-١٢٧ ، ط ٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .

٥٤٤ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين سلطانهم على البلقان ، ونقلوا عاصمة دولتهم إلى أدرنة^(١) ، فعظمت قوتهم وزادت انتصاراتهم وعلت مكانتهم .

وقد حقق بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٣م) انتصاره على الحملة الصليبية التي قادتها فرنسا والمجر في أواخر القرن الثامن الهجري أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، والتي كانت سبباً لا يُنسى في إطفاء حماس الفرنسيين لشن أية حملة صليبية قادمة للشرق الإسلامي ، وفرصة لقيام علاقات دبلوماسية بين فرنسا والدولة العثمانية^(٢) ، اتخذت لها مساراً خاصاً في مجال العلاقات السياسية بين الدولتين .

إن الدولة العثمانية في مراحلها التاريخية الأولى قد شكلت نموذجاً إسلامياً فريداً ، حيث كان الجيش العثماني لا يقاتل إلا وفي مقدمته السلطان ومعه شيخ الإسلام ، وكان هذا الجيش لا يقاتل إلا الكفار ، أي أنه اتجه غرباً ، مُهدداً أوروبا في عقر دارها ، وفتحاً للبلدان والأقاليم ، وناشراً للدين الإسلامي في ربوع أوروبا النصرانية . من هنا برزت شخصية الدولة العثمانية ، وجيشها الإسلامي ومنهجها الجهادي ، حتى إنه بات معروفاً لدى دارسي التاريخ في تلك المرحلة أن العثمانيين لا يجارون إلا لهدف ديني صرف ، وهم يسعون لنشر راية الإسلام وإعلاء شأن المسلمين ، وقد وصفهم أحد المؤرخين العرب حينذاك بقوله : " ... وكانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين ، وأشد من ذب عن الدين وأعظم من جاهد في المشركين ، فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم ، وملكوا أحسن المعمور من الأرض ودانت لهم الممالك في الطول والعرض ، هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن الحممدية ، وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك في الأحكام والوقائع

(١) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د.أحمد عزت

عبد الكريم ، ص ١٨٠-١٨٢ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.

(٢) روبر ماتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، ج ١ ، ص ٦٠-٦٩ ، ط ١ ، ١٩٩٣م ،

دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

بالقوانين والشرائع ، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانتقاد لهم المالك والمملوك^(١).

من هنا كان استيلاء العثمانيين على جزء كبير من شرق أوروبا ، واجتيازهم البحر وإقامتهم في غاليبولى عاملاً على تقوية بنیان الدولة ، وتأكد ذلك باعتناق كثير من الطبقة الأرستقراطية في أوروبا للدين الإسلامى فى مراحل الفتوحات العثمانية الأولى لتلك الجهات^(٢) ، وتحقق لهم الريادة حين فتحوا القسطنطينية - معقل الكنيسة الشرقية ومركز الدولة البيزنطية العتيد ، حيث تمكن سابع السلاطين العثمانيين السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى (٨٥٥-٨٨٦هـ / ١٤٥١-١٤٨١ م) والمعروف فى التاريخ بالسلطان محمد الفاتح ، فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ / الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣ م من دخول المدينة بعد حصار طويل وملحمة تاريخية نادرة، وفتح المدينة للمسلمين وسماها إسلام بول - أى أرض الإسلام^(٣) ، لتتحقق له المعجزة النبوية التى جاءت على لسان المصطفى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال :

" لَتُنْفَتَحَنَّ القسطنطينيةُ ولنعم الأميرُ أميرها ولنعم الجيشُ ذلك الجيشُ "^(٤).

(١) عبد الرحمن الجيرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨ ، دار الجليل بيروت ، د.ت.ن.

(٢) محمد فؤاد كوبرلى : قيام الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ص ١٨٧-١٨٩ .

(٣) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج ٢ ، ص ٣١٦ المئمة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تفرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، ج ٢ ، ص ٤٥٣ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م ، منشورات عالم الكتاب .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

السيد أحمد زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨ م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة .

يقول السلطان محمد الفاتح : "إننا لا نلقى بأنفسنا إلى المخاطر من أجل مدينة ، وإنما في سبيل الله عز وجل حتى إذا لقيناه يوم الحساب قدمنا إليه فخورين لا نحجلين وبأيدينا سيوفنا التي حاربنا بها في سبيله ، إن هذه السيوف التي نحملها ليست للزينة والتباهى وإنما هي لنقاتل بها في سبيل الله ، إن هذا العناء الذى نلاقه كله في سبيل الله"^(١) ، لقد حقق السلطان العثماني محمد الفاتح بفتح إسطنبول أملاً كبيراً طالما راود خيال المسلمين منذ الفتوحات الإسلامية الأولى ، في الوقت الذى أدى هذا الفتح إلى ارتفاع مكانة الدولة العثمانية في العالم الإسلامى ، وجعل منها القوة الإسلامية الواعدة التى يتطلع إليها المسلمون لرفع راية الجهاد وتحقيق الانتصارات وحماية البلاد الإسلامية ومقدراتها .

بهذا الفتح المبين لمدينة القسطنطينية وضع العثمانيون أقدامهم في مركز استراتيجى مهم في مضيق البوسفور والدردينيل وفي بحر مرمره وبحر إيجه وهو ما سيجعل تقدم روسيا أو إمبراطورية النمسا إلى الشرق الإسلامى أمراً مستحيلاً ومن دونه خَرَط القَتَاد، وهو ما تحقق طوال تاريخ الدولة العثمانية في عصر قوتها ، حيث أصبح لها النفوذ الكامل والسيطرة المطلقة على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب.

ونظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية في أوروبا بدءاً من فتح إسطنبول وما أعقبه من فتوحات عسكرية حاسمة على أمم فتوحات إسلامية و كارثة كبرى على أوروبا لا يماثلها أية كارثة ، ووقر في أذهانهم أن أى نصر عسكري تحققه الدولة العثمانية إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للنصرانية^(٢) ، ليصل الأمر بهؤلاء القوم في نهاية المطاف إلى اعتبار أن جذور المسألة الشرقية هي وجود الأتراك العثمانيين في أوروبا

(١) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٣٨-٣٩ ، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

(٢) د.عبد العزيز محمد الناوى: الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، ص ١٤ مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠ م

واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية ، وسيطرتهم كمسلمين أسياذ على شعوب مسيحية ، يقول إدوارد دريو Driault : " إن المسألة الشرقية هي مشكلة القضاء على قوة الإسلام السياسية " (١) ، وهذا يعنى أن العامل الدينى كان من أهم عوامل المسألة الشرقية ، وبالتالى أصبحت كراهية العثمانيين وبغضهم عسكرياً وعرقياً ودينياً من أهم دوافع المسألة الشرقية .

ولقد كان فتح القسطنطينية بداية مباركة وفأل خيرٍ على المسلمين ، لتقوم الدولة العثمانية المسلمة منذ ذلك التاريخ بجهود جهادية لتأمين طريق الحجاج البحرى من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما فى مياه البحر المتوسط الذى تنتشر على سواحله وفى مياهه القوة النصرانية فى داخل الجزر وعلى السواحل .

من هنا ، كانت علاقات العثمانيين مع القوتين البحريتين : إمارتى جنوة والبندقية ساخنة بصفة تكاد تكون مستمرة ، لكن أمام بروز القوة العثمانية عقدت البندقية صلحاً مع السلطان محمد الفاتح تعهدت فيه بمساعدته بأسطول بحرى مكون من مائة سفينة إذا هوجمت دولته من أية دولة أخرى (٢) .

وكان للحرمين الشريفين وأهلها مكانة خاصة عند سلاطين الدولة العثمانية قبل هذا الفتح المبين، حيث أرسل السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٩١-٨٠٥هـ/ ١٣٨٩-١٤٠٣م) إلى الحرمين الشريفين ولأول مرة مساعدات مالية من عاصمة الدولة أدرنة مقدارها ثمانون ألف ٨٠٠٠٠ ذهب (٣) ، وقد عُرُفت هذه المساعدات

(١) زين نور الدين زين: الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان ، ص٢٢-٢٣ ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

(٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، ص١٦٤-١٦٩ ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن .

(٣) محمد أمين المكى : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان فى الحرمين الشريفين ، ص١٩ ، إستانبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .

٥٤٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
المالية فيما بعد باسم "الصرة"^(١) ، وفي عهد السلطان محمد جليي (١١٦-٨٢٤ هـ/١٤٠٣-١٤٢١ م) استمرت هذه المساعدات المالية وأوقفت الأوقاف الكثيرة
على الحرمين الشريفين ، واستمر سلاطين الدولة العثمانية منذ ذلك الوقت في
إرسال الصرة الهمايونية سنوياً ، والحفاظ على المساعدات المالية المستمرة ، لأهل
الحرمين الشريفين والمقيمين فيها^(٢) .

وقد استمر حرص السلاطين العثمانيين على أداء هذه المهمة وإنجازها على
أكمل وجه ، بل والحفاظ على سلامة الحج والحجاج في سفرهم وإقامتهم ، حيث
أكدت الوثائق العثمانية هذا المنهج الثابت في سياسة الدولة العثمانية ، فقد ورد في
الحكم السلطاني المرسل إلى وإلى مصر وقاضيها والولاة والأمناء في الولايات والسناجق
العثمانية برقم ٣٤٨ وتاريخ ذى الحجة سنة ١١٠٣ هـ ما نصه :

" إن من لوازم ذمة وهمة سلطان الزمان الحفاظ على ذهاب وعودة من شد العزم
ورغب في زيارة الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج والطواف ببيت الله الحرام وزيارة
مسجد المصطفى سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وحفظهم بكمال الأمن
والسلامة ومزيد الاطمئنان والرفاهية ، وأن في وضع المغارم علي رؤوسهم وضرب
المكوس على أموالهم صدداً والعياذ بالله عن سبيل الله وأمرًا مخالفًا لرضاء الله ومنافياً
لسيرة أهل الإسلام ، بل وارتكاب أمر شنيع واختيار وزر فظيع ، وعليه فقد أرسلنا
أوامر بمنع التعرض والاعتداء عليهم بما يخالف الشرع مراراً ... لذا صدر الأمر
الشريف هذا بالعمل به وبمقتضى الأوامر السابقة في هذا الشأن"^(٣) .

(1) Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari,
Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Başkanligi Yayinlari, S.10.

(٢) أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، تحقيق د.محسن محمد سليم ، ص٢٧ ، الطبعة
الأولى ١٤١٣ هـ/١٩٨٣ م - دار الكتاب الجامعي ، القاهرة .

محمد نشري : كتاب جهان نما " تاريخ نشري " الناشر F.R.UNAT-M.A.
; Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TKK.Basimevi , C.II. , S. 678

عاشق باشا زادة : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢ هـ ، مطبعة عامرة ، ص١٩٦ .
عبد القادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، ص٤١ ، دار سحنون للنشر ،
تونس ١٩٩٢ م .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني
رقم ٣٤٨ في أواخر ذى الحجة سنة ١١٠٣ هـ .

وكان السلطان سليم الأول قد رتبَ صدقة سنوية من الحب توزع على سكان الحرمين الشريفين ، وهو أول من قام بكسوة الكعبة المشرفة من آل عثمان من ماله الخاص ، لذلك تمتع العثمانيون في نفوس المسلمين عامة بمركز ديني متميز ، وخاضوا حروبهم باسم الإسلام ومن أجله ، يقول السلطان محمد الفاتح : " إن بلادنا هي بيت الإسلام وسيظل مصباحها مضيئاً بزيتٍ نستخرجه ويستخرجه خلفاؤنا من قلوب الكافرين " (١) .

من هنا كان تصميم السلطان محمد الثانى - الفاتح - على فتح جزيرة رودس (٢) ، ولا سيما أنه أخضع آخر الإمارات اليونانية المستبدة في المورة ، وجعل صربيا والبوسنة مقاطعتين عثمانيتين وفتح عدداً من جزر اليونان (٣) ، وكانت رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا (٤) ، والتي كانت الحرب بينها وبين مصر سجالاتاً ، حيث

(١) د. محمد بن عبد اللطيف البحرأوى : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر ص ٨٥-٨٧ الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

(٢) جزيرة صغيرة تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى في جنوب شرق بحر إيجه ، وهى من أشهر الجزر في بحر إيجه - وهو الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، واسمها مشتق من لفظة " رودون " اليونانية ، ومعناها الورد ، وهى جزيرة طيبة الهواء ، حسنة التربة ، كثيرة الفواكه والأزهار ؛ انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقى ، ص ١٧٦-١٨٠ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، دار النفائس - بيروت .

(٣) برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د. سيد رضوان على ، ص ٤٩ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة .

(٤) يعرف فرسان القديس يوحنا باسم Hospitalers Of Saint John أو فرسان رودس Kinights Of Rhodes ويعرفون عند العرب باسم الاسبارتية ، وهم طائفة دينية عسكرية من بقايا طوائف الحروب الصليبية ، وقد جمعت هذه الطائفة بين العبادة والفروسية والشدة والصلابة ، وكانت نشأهم في بيت المقدس في القرن الحادى عشر الميلادى ، ولما استولى المسلمون على عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م انتقل الاسبارتية إلى جزيرة قبرص ومنها إلى جزيرة رودس التي كانت بالنسبة لهم مكاناً جيداً لمواصلة الحروب الصليبية لقرىها من البلاد الإسلامية ، انظر : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى : منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندرى ، ص ١٧-١٩ حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٥٥. ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين كانت تقوم بتهديد مباشر للبحار الإسلامية وطرق التجارة ، كما تقوم بتهديد الطريق البحري للحجاج المسلمين ، فأرسل لها السلطان العثماني عمارة بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل تحت قيادة القائد العثماني ميشطس باشا ، وضرب الحصار عليها من ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ / ٢٣ مايو سنة ١٤٨٠م ولمدة ثلاثة أشهر ، حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على الجزيرة وتدمير قلاعها لكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، فرفعوا الحصار عنها وعادت قواتهم دون تحقيق أية نتيجة تذكر^(١) .

وكان القائد العثماني طره خان أوغلو عمر بك قد شتت الجيش الذي حاول الدفاع عن البندقية في منتصف سنة ٨٨٢ هـ / أوائل نوفمبر سنة ١٤٧٧م ، وأسّر قائده ، وعندئذ أجبر السلطان محمد الفاتح البندقية على دفع غرامات الحرب وتسليم خراج سنوي للدولة^(٢) ، ويعود سبب تلك التحركات في المقام الأول إلى أهمية مدينة البندقية التي تقع على البحر الأدرياتيكي والتي تعتبر من أهم الثغور التجارية التي تتحكم في تلك البحار ، إضافة إلى أن جزيرتي قبرص وكريت الاستراتيجيتين كانتا تابعتين للبنادقة حينذاك وتهددان طريق الحجاج في البحر الأبيض المتوسط دون شك .

ثم أخذ السلطان العثماني محمد الثاني في تجهيز قواته الحربية لفتح جزيرة قبرص ، حيث أمر بتجهيز تجريدة بحرية قوية لمهاجمة الجزيرة وفتحها ، لكن الأجل عاجله قبل أن يحقق هدفه الجهادي العظيم^(٣) ، ومات - يرحمه الله - في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ / ٣ مايو سنة ١٤٨١م^(٤) .

(١) رزق الله منقربوش الصديقي: تاريخ دول الإسلام ، ج ٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ / ١٩٠٨م ،

أرغون : المصاييح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة ، ترجمة حنفي هند بن إسماعيل ، ج ١ ، ص ٤١ ب.ت.ن. ، ب.م.ن.

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٦٧-١٦٨ ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، إسطنبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

روبير ماتران : تاريخ الدولة العثمانية ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، ج ٢ ، ص ٦١ ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(٤) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقي ، المرجع السابق ، ص ١٧٦

أصبحت جزيرة رودس مصدر خطر على الدولة العثمانية ، فقد استقبلت الأمير جم الذى انشق على أخيه السلطان بايزيد الثانى ، ووصل الجزيرة فى منتصف سنة ٨٨٧ هـ / منتصف ١٤٨٢م وقد هدد السلطان العثمانى فرسان القديس يوحنا فى رودس ، ثم أرسل لهم وفوداً كى يسلموا له أخاه أو يضعوه تحت المراقبة على أن تدفع لهم الدولة العثمانية مبلغاً سنوياً لقاء ذلك ، أما السلطان سليم الأول بن بايزيد الثانى (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) الملقب بـ - ياووز - أى القاطع ، فقد كان حريصاً على فتح جزيرة رودس ، لأنه يدرك أنها تشكل عقبة كؤوداً فى طريق الحجاج البحرى العثمانى ، وطريق التجارة البحرية العثمانية ، بيد أن الأجل عاجله قبل أن يحقق أهدافه^(١) ، لقد كانت جزيرة رودس مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانى البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحرى الذى يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهى بالتالى خطر على الحجاج والمسافرين من رعايا الدولة العثمانية ، فقد وصفها أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : " ... جزيرة رودس التى أذهلت بشرها العقول وحيّرت الأبواب ، ... كانت شرك الشرك ، وحبالة الإفك ، ومقر الظلم والعدوان ومستودع الخزي والبهتان ، طالما سيقت إليها الزمر من المسلمين أسارى ، مكبلين فى الحديد فتراهم من الكرب سكارى ، وما هم بسكارى ، ويستعملون فى الأعمال الشاقة ، ويكلفون فوق الجهد والطاقة ، ويقتسمون أموالهم كالأنفال ، وهم ينظرون ولا يُغنون بحال ..."^(٢) .

من هنا طلب السلطان العثمانى سليمان الأول بن سليم الأول - القانونى - ٩٢٦ هـ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م " من قادته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات

(١) إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٨٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

(٢) عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى - منح رب البرية فى فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندرى ص ٩٣-٩٤ ، الحولية الثامنة عشر من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م .

وافية عنها ، وحجم الأسطول فيها وأنواع السفن التي يملكها أهل هذه الجزيرة ، فجاءه الرد سريعاً ، والشرح وافياً عن هذه الجزيرة وغيرها من الجزر التابعة لحكومة البندقية ، فهناك خمس عشرة سفينة تابعة لجزيرة رودس ، وجزيرتان تابعتان للبندقية هما اسكاثوس واسكيروس ، والأولى منهما عبارة عن قلعة حصينة ملاذاً لسفن اللصوص وقطاع الطرق من هؤلاء القوم ، وفي الجزيرتين أعداد كبيرة من اللصوص النصاري ، الذين يهاجمون قرى المسلمين ويقطعون الطريق عليهم ، فيأخذون النساء والأطفال أسارى ويقتلون الرجال وينهبون الأموال ، والتعاون قائم ومعروف بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بهم في كل وقت وحين ، وأن أعمال القرصنة والسلب والنهب تنطلق في معظمها من جزيرة رودس ، وما يتبعها من جزر ، وقد سبق لأهل هذه الجزيرة أن قبضوا على زوجة وأبناء أحد طائفة السباهية العثمانيين ، وحبسوهم لمدة عامين ، وأنه في عام ٩٢٧هـ خرجت ثلاث سفن من قلعة رودس واستولت على سفينتين عثمانيتين كانتا تحت قيادة كل من عيسى ريس ، واسكندر ريس^(١) .

ويؤكد أحد المؤرخين العثمانيين هذه الحقائق العلمية بقوله : " إن جزيرة رودس وقلعتها العسكرية كانت مأوى ومقراً لطائفة الإفرنج ، وقراصنة البحر منهم ، وكانت قرية من الممالك العثمانية ، وكان أهلها لا يتخلون عن إيصال الضرر لأهل الإسلام ؛ خصوصاً التجار والحجاج والمسافرين الذين يذهبون إلى مصر بالسفن عن طريق البحر ، والحجاج الذين يذهبون إلى بلاد الحرمين الشريفين لأداء فريضة الحج عن طريق البحر كذلك ، عندئذ يتعرض هؤلاء القوم من أهل رودس للمسافرين والحجاج من المسلمين ويطردون لهم الطرق ، ويضربونهم بالمدافع ، وينهبون أموالهم ويأخذونهم أسارى ويضربون عليهم السلاسل والأغلال ، ويدخلونهم في السجون ،

(١) د.فيل بن عبدالله الكندري: تحقيق مخطوط " منح البرية في فتح رودس الأبية " ، ص ١٤٣-١٤٤ ، ترجمة للرسالتين المنقولتين عن : جلال زادة مصطفى جلي : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قاي سراي اسطنبول .

ويعرضونهم لأصناف الإهانة والأذى ، فيقتلون الرجال ويستعبدون النساء والأطفال حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا فلما عُرض الأمر على العتبة السلطانية بكل تفاصيله ودقائق أخباره ، أخذته الحمية الدينية وأعلن الحرب عليهم وتسخيرهم ورد شرورهم ، لأن ذلك من مهمات الدين والدولة ، فجهز لهم أسطولاً همايونياً في فصل الشتاء طاعة لله ورسوله ... " (١) .

من هنا يتبين لنا أن جزيرة رودس كانت مصدر قلق لتجارة العثمانيين بين إسطنبول وموانئ البحر المتوسط كالإسكندرية وغيرها ، كما كانت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ومصدر خطر عظيم للحجاج العثمانيين الذين يخرجون من عاصمة الدولة العثمانية - إسطنبول - إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر المتوسط وموانئه ومن ثم عن طريق البحر الأحمر وموانئه . هنا كان قرار السلطان سليمان الأول بن سليم الأول بتجهيز قوة بحرية قوامها ثلاثمائة مركب تحمل عشرة آلاف بحري بقيادة القائد العثماني بيىرى باشا إضافة إلى مائتي ألف جندي عثماني تحت قيادة مصطفى باشا صهر السلطان العثماني ، وفتحت الجزيرة بعد حرب ضروس وقتال عنيف ، شاركت فيه قوات من ولاية مصر العثمانية ، ورُفِع علم الدولة العثمانية في وسط الجزيرة ، واستسلمت المدينة للسلطان العثماني سليمان القانوني في السابع من شهر صفر سنة ٩٢٩هـ / أواخر ديسمبر ١٥٢٢م ، ومنح السلطان العثماني فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ، ومنح الأمان والحماية لأهل الجزيرة (٢) .

(١) صولاق زادو : تاريخ صولاق زادة ، ص ٤٣٩ ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٢) د. محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٥٦-٥٧ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م

د.خلف بن دبلان الوديناني: الفتح العثماني لجزيرة رودس ، ص ٦٢-١٠٥ ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

وسارع السلطان العثماني سليمان القانوني من مركز قيادته في قلعة رودس بنقل أخبار هذا الفتح المبين إلى قاضي بورصة مؤكداً له حرصه الشديد والمستمر على نصره الدين الإسلامي ، ورفع راية الدين وقمع وقلع آثار الكفرة والظالمين ، وفي مقدمتهم أهالي رودس الذين يقطعون طريق المسافرين بالبحر، ويسفكون دماء التجار، وشرح السلطان في رسالته تلك مراحل الاستعداد للمعركة وبدايتها وأسماء القادة الذين شاركوا ومهامهم ، وما قام به السلطان نفسه في هذه المعركة الحاسمة التي نصر الله فيها جند الإسلام ، وأن جزيرة رودس قد طُهرت من دنس أهل الكفر والضلال ، وتحولت معابد الأصنام والأوثان إلى مساجد لأهل الإيمان ، وأكد السلطان العثماني سليمان القانوني في رسالته هذه نجاح الدولة العثمانية وجيشها المظفر في تأمين الطريق البحري للحجاج القادمين من عاصمة الدولة العثمانية وأطرافها إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، حيث قال : " ... وأضحى معابر بيت الله الحرام آمنة من عبث الكفرة الفجرة " ، وهو بذلك يقصد أهالي رودس والجزر المماثلة لها في البحر المتوسط التي ينطلق منها اللصوص وقطاع الطرق لمهاجمة قوافل الحجيج البحرية التي تجوب مياه البحر المتوسط في طريقها إلى موانئ الدولة الإسلامية في مصر والشام وعلى سواحل البحر الأحمر ، وفي ختام هذه الرسالة السلطانية التي تعطي الدليل الواضح على مهمة هذه الحملة البحرية وأهداف هذا الفتح الإسلامي الكبير ، أشار السلطان سليمان القانوني إلى أن كافة الجزر وقلاعها قد أضيفت إلى أملاك الدولة ، وأن العفو والأمان قد مُنح لأهل هذه الجزر وتلك القلاع ، على أرواحهم وأموالهم وأولادهم وعبائهم ، وأن كافة أسرى المسلمين في هذه الجزر قد أُطلق سراحهم وصاروا أحراراً بعد أن فك الله قيدهم وتحقق النصر لدولتهم الإسلامية، والمرجو إظهار الفرح والمسرات والدعاء لدوام الدولة والسلطنة^(١) .

(1) Osmanli Devletinin - Merkez ve Bahriye Teşkilâtı ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.S.401-404 Ankara - 1988 .

أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، ج ١ ، ص ٤٦٩-٤٧٤ ، نشر في إسطنبول ، سنة

وهكذا بدأ العثمانيون في حماية طريق الحج البحري ، وبدأت قوافل التجارة العثمانية البحرية تشعر بشيء من الأمن والاطمئنان ، ولا سيما أن القرصنة في البحر المتوسط لم تعد تجدد من يساندها بعد فتح جزيرة رودس التي كانت تشكل خطراً حقيقياً في البحر ، وقد خضعت الجزر البحرية القريبة من رودس لنفوذ الدولة العثمانية ، عندما علمت بفتح الجزيرة وضمها للدولة العثمانية ، وأصبحت تلك الجزر جميعها جزءاً عثمانياً ، تقدم الولاء والطاعة للدولة^(١) ، لكن فرسان القديس يوحنا غادروا جزيرة رودس بعد سقوطها في أيدي العثمانيين ، واتخذوا من جزيرة مالطة^(٢) قاعدة لهم ، حيث تنازل لهم ملك أسبانيا وألمانيا شارل الخامس - الشهير بشارلكان - عن هذه الجزيرة المهمة كي يشنوا منها هجماتهم البحرية وقرصنتهم القتالية ضد السفن التجارية العثمانية ، وضد سفن الحجاج المسلمين بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر^(٣) ، وبالتالي صار موقف الدولة العثمانية في تأمين طريق الحجاج البحري من عاصمة الدولة العثمانية وأقاليمها عبر البحر المتوسط حرجاً جدياً ، وبات التهديد واضحاً للسفن التجارية ولقوافل الحجاج البحرية ، وهو ما زاد من مهمات الدولة العثمانية في هذا المجال .

لقد أصبح انضمام المشرق العربي إلى الدولة العثمانية يشكل عبئاً على قوتها البحرية كي تضمن سلامة المواصلات عبر البحر المتوسط من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الموانئ المصرية وموانئ الشام ، وبالتالي الوصول إلى الحرمين الشريفين لأداء فريضة

(١) يوصف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

(٢) جزيرة مالطة : جزيرة صغيرة في البحر المتوسط بالقرب من سواحل إيطاليا ، وهي ذات أهمية بحرية كبيرة لموقعها الاستراتيجي ، وقد تنازعتها الملوك والأمم على مر التاريخ ، وقد استقر بها فرسان القديس يوحنا إلى سنة ١٧٩٨م ، ثم احتلها نابليون بونابرت عند مجيئه إلى مصر ، وفي سنة ١٨٠٠م احتلها الإنجليز ليسودوا بها ومن خلالها على البحر المتوسط ، وقد أيد مؤتمر ويانة سنة ١٨١٥م احتلالهم لها .

انظر : محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، هامش ٢ ، ص ٢٠٦ .

(3) Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971 , PP.161-163

٥٥٦ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين الحج ، وهذا ما أدركه السلاطين العثمانيون حينذاك ، وبالتالي كان تأمين الطريق البحري من أولوياتهم ، وهو ما انعكس إيجابياً على تطور الأسطول البحري العثماني^(١) .

لقد باتت موانئ الشام في طرابلس وبيروت واللاذقية تمثل مركزاً استراتيجياً لاستقبال قوافل الحجاج وتأمين سلامتهم ، وبالتالي انتعاش التجارة وتطورها ، وهو ما ظهر واضحاً على مواردها الجمركية في أواخر القرن العاشر الهجري / أواخر القرن السادس عشر الميلادي^(٢) ، حيث أقامت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني قلعة بقراص في المضائق بين ميناء خليج الإسكندرونة والبحر لحماية المسافرين وقوافل الحجاج من غارات القراصنة البحرية ، وقلعة أخرى على ساحل الخليج الشرقي في باياس ، وكلفت الحامية فيها بعدم مغادرتها إلا لأمر خطير ، لأهمية هذه القلعة وأهمية موقعها^(٣) ، وزيادة في سلامة الحجاج والمسافرين عبر البحر أمر السلطان العثماني سليمان القانوني ببناء برج مراقبة في داخل البحر مقابلاً للقلعة ، شبيهاً بالبرج المقام في البحر عند مدخل البوسفور في عاصمة الدولة إسطنبول^(٤) .

وأمام هذه المتغيرات المتلاحقة فقد جمع السلطان سليمان القانوني مجلس الشورى في إسطنبول لأخذ رأيهم في التهديدات التي تتعرض لها الدولة ، فأشار المجلس على السلطان بفتح جزيرة مالطة أولاً وقبل كل شيء ، لأن فرسان القديس يوحنا فيها هم أساس كل هذه الاضطرابات ، فهم يقومون بكل أنواع القرصنة في حوض البحر الأبيض المتوسط كما كانوا يقومون بها في جزيرة رودس ، عندئذ أمر السلطان العثماني بتجهيز قوة بحرية أوصلها البعض إلى ٣٠٠ سفينة فيها من المعدات والأسلحة عشرون مدفعاً كبيراً ، و ١٢٠ مدفعاً صغيراً ، و ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود ويقود

(١) روبر مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٧-٢١٨ .

(٢) الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية - صحيفة ٢٥٢

الفرمان الموجه في ٢٢ ذى القعدة سنة ٩٨١هـ إلى أمير أمراء الشام .

(٣) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ٧ - الفرمان رقم ٣٧٣ .

(٤) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - كبه جي - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس - صحيفة

رقم ١٨٧ - بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٨٣هـ .

هذه القوة بياله باشا للأسطول البحرى ، والوزير مصطفى باشا لقيادة الجند ، بيد أن هذا الأسطول لم يحقق أية انتصارات رغم وصوله إلى الجزيرة ، لكنه فك الحصار عنها وعاد دون أن يفتحها^(١) .

و لم يغفل العثمانيون عن سلامة البحر والمسافرين عليه في أية اتفاقية أبرموها أو معاهدة وقعوها ، وهذا ما ظهر واضحاً في معاهدة الامتيازات القنصلية التي وقعها السلطان العثماني سليمان القانوني مع فرنسا في منتصف سنة ٩٤٢هـ / أوائل سنة ١٥٣٦م ، حيث أكد البند الأول من بنود تلك المعاهدة على الالتزام بسلامة المسافرين على البحر وسلامة أموالهم في أى مكان سواء داخل البحر أم على الثغور ، وأن تلتزم الأساطيل البحرية للدولتين بسلامة رعايا الدولة الأخرى على البحر وعدم إخضاعها للتفتيش أو التوقف ، وهو ما أشار إليه البند الحادى عشر من تلك المعاهدة^(٢) ، وهذا ما يؤكد أهمية تأمين الطريق البحرى ، لا سيما وأنه أصبح شرياناً رئيسياً يربط عاصمة الدولة بأطرافها البعيدة في الشام ومصر ، وبالتالي لا بد أن يكون معبراً آمناً للحجاج والمسافرين والتجار ، وسلامته سلامة للدولة وهيبتها .

وقد برزت قوة العثمانيين البحرية في البحر المتوسط بشكل واضح بعد انتصار أمير البحر " الأدميرال " خير الدين برباروس^(٣) وأسطوله البحرى المكون من ١٢٠

(١) خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثمانى ، ص ٣٤١-٣٤٢ ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣-٢٣٠ .

(٣) خير الدين باشا بربروسا - أو " برب روس " أى ذى اللحية الذهباء ، من أسرة تركية مسلمة ، وهو من أصل يونانى - انتقل هو وأسرته من جزيرة مدلىلى - إحدى جزر اليونان التى فتحها محمد الثانى ، التحق بخدمة السلطان سليم الأول بعد فتحه مصر برتبة بكلربك - بيلربى - أى أمير ، حيث أمده بألفى جندى عثمانى مع مدفعتهم وسمح لهم بزيادة عدد جنده فى البحر ومنحهم حقوق الإنكشارية وامتيازاتهم وقد عيّن أميراً للبحر سنة ١٥٣٣م ، وتوفى فى إسطنبول سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م حيث دفن فى حى بشكطاش على شاطئ البوسفور فى المثل المعد لمرسى الدونائيات العثمانية ، وقد ترك للدولة العثمانية أسطولاً بحرياً مجهزاً بأفضل أنواع الأسلحة والتجهيزات ، ورجال أكفاء من البحارة المهرة الذين تمرسوا على خوض المعارك البحرية ؛ انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

٥٥٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

قطعة بحرية في المعركة البحرية التي خاضها أمام بَرُوزَة^(١) في أوائل سنة ٩٤٦ هـ / ٢٨ سبتمبر سنة ١٥٣٨م مع التحالف البحري الأوروبي المؤلف من مائة وسبعين سفينة بحرية^(٢) ، وكان اهتمام العثمانيين بالبحر قد ازداد منذ عهد السلطان محمد الفاتح حيث تقدمت البحرية العثمانية خطوات سريعة ، لأن الجهاد في البحر كان يتساوى مع الجهاد في البر إن لم يكن يتفوق عليه وفق مقتضيات العصر التاريخي وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر .

ولقد كان أسطول البندقية البحري مصدر قلق للدولة العثمانية ، حيث عاث في الشواطئ الجنوبية من آسيا الصغرى ، واحتل عدداً من المناطق الساحلية ، بيد أن انتصار البنادقة على العثمانيين في معركة غاليبولي البحرية في سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م ، جعل السلطان محمد الثاني فيما بعد يحفظ للعثمانيين مكاتهم البحرية ويحفظ لهم سمعتهم الدولية التي يستحقونها ، حين جهز حملة بحرية قوامها مائة وثمانون سفينة شراعية في أواخر سنة ٨٦٠هـ / ربيع سنة ١٤٥٦م من غاليبولي إلى سواحل بحر إيجه ، للسيطرة عليها وبسط نفوذ الدولة العثمانية هناك وهو ما تحقق فعلاً^(٣) ، ويشير أحد المؤرخين إلى هذا التفوق البحري للعثمانيين في تلك الفترة في مقارنة رقمية يبين فيها أن الأسطول العثماني كان يحتوي على ثلاثين سفينة حربية وقطع صغيرة بينما كان الأسطول البندقي متفوقاً على الأسطول العثماني بمراحل ، بيد أن السلطان محمد الفاتح جعل الأسطول العثماني يفوق الأسطول البندقي باثنتين وتسعين قادرغاً^(٤) ، وأكبر

(١) بروزة : مدينة تقع على رأس الخليج في ألبانيا .

(٢) د . محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة : ص ٩٨-٩٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ /

١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٦٨-٤٦٩ - نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس

منير البعلبكي ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) قادرغا Kadirga- نوع من السفن في الأسطول العثماني ، وكان أكبرها - ولكل واحدة منها

خمسة وعشرون متعبداً ، وتسعة وأربعون مجدافاً ، ويحرك المجداف الواحد أربعة أو خمسة

أشخاص ، وكان طول الواحدة منها ١٦٥-١٦٨ قدماً وعرضها ٢١-٢٢ قدماً ، وهي تعمل

بالمجداف والشراع ، وتحمل الواحدة منها مدفعية كبيرة وأربع وسطى وثمان صغيرة ، ويعمل فيها

١٩٦ مجدفاً و١٠٠ محارب و٣٥ بحاراً ، بالإضافة إلى أصحاب المهن الأخرى ؛ انظر: تاريخ جودت:

تحقيق د.عبد اللطيف الحميد ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ،

بيروت .

منها ١٦ طراداً ، ونحواً من ٤٠٠ سفينة نقل وإنزال ، ووضع المدافع على السفن ، ولم تبقى أية سفينة حربية بلا مدفع ، وقبيل وفاة السلطان محمد الفاتح كوّن أسطولاً بحرياً يعادل ضعفى الأسطول البندقى - ٢٥٠ سفينة حرب و ٥٠٠ سفينة نقل ، وبالتالي تحققت لأول مرة في التاريخ العثماني قوة بحرية عثمانية ، تستحق الدهشة وتتفوق على الأساطيل الأوروبية باعتراف المؤرخين الأوروبيين أنفسهم^(١) .

ومع تفوق العثمانيين في المواد الخام لبناء أسطولهم البحري ، حيث كانت الغابات الكثيفة على شواطئ البحر الأسود ، وكذلك وفرة المعادن اللازمة لبناء السفن ، إلا أن ازدياد الملاحين من النصارى الطليان أو اليونان أو البنادقة ، قلل من نسبة الولاء ، وزاد من ظاهرة الخيانة وعدم الولاء للدولة العثمانية^(٢) ، وهذا بطبيعة الحال يقلل من الجانب الجهادي في البحر على المدى البعيد ، وقد أسندت إلى والي سنجق غاليبولي قيادة القوات البحرية في بداية الأمر ، وعند تعيين خير الدين بربروس أميراً للبحر كلف بالولاية على جزر بحر إيجه أيضاً^(٣) ، لأن الدولة العثمانية أصبحت تدرك أهمية الولاء الديني ، والإخلاص القيادي عند رجال الدولة في المجال البحري وحماية الثغور البحرية العثمانية من القراصنة وقطاع الطرق .

وقد أدرك السلطان علاء الدين ، سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثماني في مواجهة الأساطيل الأوروبية ، وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل في البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م ، يستنجد به ضد البرتغاليين الذين ظهروا في مياه المحيط الهندي ، وبدأوا يهددون سواحل دولته ، ولا غرابة في ذلك حيث إن الملك فرنسيس الأول ملك فرنسا قد استنجد هو الآخر بالسلطان سليمان القانوني ضد أعدائه الذين تغلبوا عليه في مملكته ، وكان رده حاسماً وسريعاً ، وأشار في رسالته إلى ملك فرنسا بأنه سلطان البحر الأبيض المتوسط والأسود وبلاد الروم إيلي والأناضول ... إلخ ، وهذا يؤكد

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، المرجع السابق .

(٢) د . محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ص ٤٧١ .

٥٦٠ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

شعور السلطان العثماني بقوته العسكرية في البر والبحر ، والتي برزت بصورة واضحة في فتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط ، حيث فُتِحَتْ جزيرة جربة على الساحل التونسي ، وعندما تَمَمَّ ملك أسبانيا وبدأ في مضايقة المراكب العثمانية في البحر المتوسط ، ودعم قراصنة جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، والذين باتوا يهددون الطريق البحري للدولة العثمانية ، أعد السلطان العثماني قوة بحرية هائلة قوامها مائة وواحد وثمانون مركباً تحت قيادة القبطان شايبلي وهاجمت جزيرة مالطة Malta في البحر الأبيض المتوسط ، وضربت عليها الحصار في أواخر سنة ٩٧٢هـ/ أواخر شهر مايو سنة ١٥٦٥م ، ودمرت حصونها وقلاعها واستمر الحصار ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم رفع عنها الحصار لرداءة الجو وقرب فصل الشتاء وخوفاً على الجند العثماني وقوته البحرية^(١) ، بينما يذهب أحد المؤرخين في معالجة تلك الحادثة إلى أن السبب في فك الحصار عن جزيرة مالطة حينذاك هو استبسال فرسان القديس يوحنا في الدفاع عن الجزيرة مما كلف العثمانيين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد وهو ما أرغمهم على فك الحصار ، وعلل تلك المتغيرات باتساع رقعة الدولة العثمانية ، وعدم قدرتها على مجاراة الأوروبيين في التطور التكنولوجي ولا سيما في المجال البحري والسفن البحرية الحديثة التي تحمل المدافع والأسلحة المتقدمة^(٢) .

لقد كان حرص السلاطين العثمانيين على البحر شديداً ، مما يعني أن الجزر والثغور والسواحل البحرية لا بد وأن تكون تحت السيادة العثمانية لتكون الطرق البحرية والساحلية آمنة ، وبالتالي يكون طريق الحاج وطرق التجارة في مأمن عن القراصنة وقطاع الطرق .

من هذا المفهوم جهزت الدولة العثمانية حملة بحرية بقيادة والي مصر سليمان باشا ، وخرجت هذه الحملة من ميناء السويس لمواجهة البرتغاليين ، ومنعهم من التغلغل في البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلى المحيط الهندي لإغاثة سلطان الهند ضد هؤلاء الغزاة ، وقد مكنت تلك الحملة البحرية وما تبعها من حملات الدولة

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٧٥-٧٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢-١٠٣ ، الطبعة الأولى ١٤٠٢

هـ/١٩٨٢م ، دار الشروق ، القاهرة .

العثمانية من السيطرة على ميناء عدن ومدخل البحر الأحمر في أوائل سنة ١٥٩٤هـ / منتصف سنة ١٥٣٨م^(١) .

إن الدولة العثمانية في عهد السلاطين الأوائل ، كانت تمثل القوة الحقيقية للدولة الفاعلة في مسار الأحداث ، فهي في مرحلة بناء وصراع عسكري وتوسع في أملاك الدولة ، وتأکید لمكتسباتها وحدودها وأمنها ، من هنا كان الحرص مستمراً على فتح الجزر التي تشكل تهديداً لأمن الدولة ورعاياها ، وهذا ما رأيناه في حملة جزيرة قبرص^(٢) ، تلك الجزيرة التي كانت تمثل مرتكزاً خطيراً في خاصرة شرق البحر المتوسط، إذ هي تشكل وكراً للقرصنة ، وبلاءً مستمراً لطريق الحاج العثماني وللتجارة العثمانية ولا سيما إذا كان الجو مكفهراً بين الآستانة والبندقية ، من هنا حرص السلطان العثماني سليم الثاني بن سليمان الأول (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) على إكمال مجد القوة العثمانية ، فساق عمارة بحرية مؤلفة من ثلاثمائة وستين مركباً تحمل مائة ألف جندي عثماني ، حيث هاجمت الجزيرة وخاضت معها حرباً ضروساً ، انتهت باستسلام عاصمة الجزيرة نيقوسيا في أوائل سنة ٩٧٨هـ /أواخر سنة ١٥٧٠م، رغم مشاركة كثير من رجال البحرية البنادقة في الدفاع عن الجزيرة لكن دون جدوى، وبعد فرض سيطرتهم الكاملة على الجزيرة ، سمح العثمانيون لمن يرغب من أهل الجزيرة بمغادرتها والانتقال إلى جزيرة كريت على السفن العثمانية، وتكفلوا بحماية أرواح وممتلكات سكان قبرص الذين لا يرغبون في مغادرتها، ثم منح العثمانيون رئيس الأساقفة الأرثوذكس في الجزيرة كافة الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعات الرومية ، وهو ما كان يفتقده في عهد البنادقة^(٣) ، ورغم أن بعض المؤرخين تطرفوا في تعليل الأسباب التي حملت السلطان سليم الثاني على فتح جزيرة قبرص ، وأنه فتحها نزولاً

(١) د. محمد البحراوي : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) قبرص جزيرة صغيرة ذات موقع جغرافي استراتيجي في شرق البحر الأبيض المتوسط بالقرب من سواحل الشام ومصر والأناضول حيث تبعد عن ساحل الأناضول ٧٠ كم وعن ساحل سوريا ١٠٠

كم وعن مصر ٣٨٠ كم ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق هامش ١ ، ص ٢٥٥

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٣٦٨-٣٧١ ، المرجع السابق .

د . محمد كمال الدسوقي: المرجع السابق ، ص ٧٩-٨٠ .

٥٦٢ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين على رغبة أحد ندمائه اليهود^(١) ، إلا أن الحقائق التاريخية والمعطيات العلمية في تلك المرحلة ، ومنهجية مسار التاريخ ، وناموس قيام الدول ، ترفض مثل تلك التحليلات والتعليقات ، لأن العثمانيين كانوا حينذاك في مرحلة جهاد ديني صرف ، ولهم أهداف سياسية ودينية تكاد تكون معروفة للمؤرخ المتخصص والمنصف ، أيّ كان توجهه وموقعه من أهمية الحدث ، بينما تؤكد المصادر العثمانية القريبة من الحدث أن جزيرة قبرص حينذاك كانت تمثل خطراً محدقاً بمصالح الدولة العثمانية ومكتسباتها وطرقها البحرية وثغورها المهمة ، وأن أهل قبرص قد اعترضوا الحجاج الذين يذهبون إلى الحج عن طريق البحر ، وأنهم قد نهبوا أموالهم وقتلوهم وأسروا نساءهم وأطفالهم ، وتأميناً لحياة العباد وصيانةً للبلاد فقد قرر السلطان العثماني بنية خالصة أن تُملأ الجزيرة بأهل الإسلام كما كان ، فأرسل لفتحها قائده المظفر لالا مصطفى باشا ومعهُ الأسطول العثماني الذي حقق النصر وبلغ الغاية المنشودة^(٢) .

ويؤكد بعض المؤرخين المعاصرين استناداً إلى الوثائق العثمانية أن القراصنة المسيحيين المتمركزين في جزيرة قبرص في تلك الفترة وتحت حماية وسيطرة البنادقة ، كانوا كثيراً ما يقومون بالاعتداء على السفن التجارية العثمانية ، وعلى سفن ومراكب الحجاج العثمانيين المتجهين إلى الحرمين الشريفين عن طريق البحر ، وأن علاقة البندقية حينذاك مع الدولة العثمانية كانت تسير إلى الأسوأ ، من هنا صدرت فتوى شرعية من شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، بأن جزيرة قبرص كانت فيما مضى بلداً مسلماً ، وهي الآن تمدد المسلمين وبلادهم ، فيجب غزوها وإعلان الحرب عليها ، وقد تحقق ذلك وفتحت الجزيرة وباتت بكلربكية عثمانية^(٣) .

(١) يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٢) كلشني : كلشن معارف ، ص ٥٦١ ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي ، ج ١ ص ٤٤ ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إسطنبول .

؛ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي نصره أهل الإيمان بدولة آل عثمان ؛ دراسة وتحقيق د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي ، ص ١٦٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .

لكن جزيرة مالطة أصبحت مصدر خطر حقيقي في البحر المتوسط على التجارة العثمانية وعلى طريق الحاج البحري القادم من عاصمة الدولة العثمانية إلى الحرمين الشريفين ، وهو ما ظهر في تلك الحادثة التي ذكرها المؤرخون في عهد السلطان العثماني إبراهيم بن أحمد الأول (١٠٤٩-١٠٥٨هـ / ١٦٤٠-١٦٤٨ م) حيث هاجم قراصنة مالطة قافلة الحاج العثماني وفيها قزقر آغاسي^(١) ، الذي كان في طريقه إلى الحج ومعه جارية حسناء من جوارى القصر ومعها طفلها الرضيع ، وبينما هو في الطريق هاجمه قراصنة مالطة فقتلوه وأخذوا الولد ظناً منهم أنه ابن السلطان ، وأخذوه معهم ونصّروه واشتهر عند الإفرنج بعد ذلك باسم " بدر أوتو ماتو - أى الأب العثماني " ، وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً في مهاجمة جزيرة كريت من قبل الأسطول العثماني في أواخر شهر ربيع الثاني سنة ١٠٥٥هـ الموافق أواخر يونيو سنة ١٦٤٥ م ، لأن هؤلاء القراصنة قد نزلوا جزيرة كريت بعد تلك الحادثة واستضافهم أهل الجزيرة وأحسنوا وفادقم ، مما جعل السلطان العثماني يزداد غيظاً ويأمر بغزو هذه الجزيرة وتأديب أهلها^(٢) .

ولم يتوقف هؤلاء القراصنة في جزيرة مالطة عن مهاجمة الطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بولاياتها وأقاليمها في المشرق العربي ، حيث هاجم هؤلاء القراصنة سفينة عثمانية أثناء عودتها من ميناء الإسكندرية في الأراضي المصرية إلى عاصمة الدولة إسطنبول ، هنا أعلن السلطان العثماني الحرب على جزيرة مالطة ،

(١) قزقر آغاسي Kizlaragasi ، تعني المشرف على دائرة الحرم في القصر السلطاني ويطلق عليه أيضاً " آغا دار السعادة " وكان على رأس خدم القصر ، ولأهمية منصبه كان يأتي بعد شيخ الإسلام مباشرة في الترتيب الرسمي ، وكان يأتمر بأمره كل الأغاوات القائمين بالخدمة في القصر السلطاني ، وكان الأغاوات القائمون على خدمة الحرمين الشريفين يأتمرون بأمره أيضاً فهو الرئيس المباشر لهم ، وكان يصحب الصرة إلى الحجاز سنوياً ، وهو من مراكز القوى في القصر السلطاني . انظر : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، للدكتور سهيل صابان ، ص ١٨٠ ، ط ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

٥٦٤ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين والجزر المناصرة لها والمتعاطفة معها ، واستمرت الحرب سجالاتاً حتى تمكن العثمانيون من بسط نفوذهم والسيطرة الكاملة على جزيرتي كريت ومالطة وعلى أهم القلاع والثغور فيها^(١) .

في تلك المرحلة الحاسمة ، وفي ضوء الانتصارات البحرية المتتابة بدأت الأساطيل العثمانية في مهاجمة بعض الجزر المهمة في البحر المتوسط مثل جزيرتي كريت وزانطة^(٢) ، ذات الموقع الاستراتيجي ، هنا بدأ تجمع القوى النصرانية ضد الدولة العثمانية ، والتقى الجانبان في معركة بحرية حاسمة في خليج ليبانتو Lepanto في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ / ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١م وتفوق التحالف المسيحي على القوات العثمانية ، التي فقدت سفنها وسلاحها وأسر عدد من رجالها ، وتعتبر هذه المعركة من أولى المعارك البحرية التي خسرتها الدولة العثمانية ، حيث غنم النصارى ١٣٠ سفينة عثمانية ، وأحرقوا وأغرقوا ٩٤ سفينة ، وغنموا ٣٠٠ مدفع ، وأسروا ثلاثين ألفاً من الجند العثماني ، لكن الدولة العثمانية سارعت في تضييد جراحها واستعادت مجدها وبدأت في بناء أسطولها البحري^(٣) .

إن جهود الدولة العثمانية لفتح الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط لم تتوقف لأنها تنطلق من منطلق قيام الدولة العثمانية ذاتها ، فهي تهدف لحماية الأماكن المقدسة وتأمين الطرق المؤدية إليها ، وقد استمرت الحملات البحرية لفتح الجزر المهمة

(١) أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية ... ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ .

خليل ساحلي أوغلي : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، ص ٣٣٣ ، المرجع السابق .

(٢) - جزيرة كريت تقع في الشمال الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، فهي ذات موقع بحري مهم ،

حيث تتحكم في مضيق الدردنيل ، فتحها العرب ، ثم استرجعها الروم سنة ٩٦١م ، وفي سنة

١٢٠٤م أخذها البنادقة ، ثم فتحها العثمانيون بعد ذلك .

- أما جزيرة زانطة ، فهي جزيرة تقع بالقرب من مدخل خليج كورنتوس إلى الغرب من الجزء

السفلى من اليونان ، انظر : محمد فريد : المرجع السابق ، هامش ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٥ ،

وهامش ٣ ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) د . محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ٨١-٨٢ ، وليانتو : ميناء يقع في غربي اليونان عند

مضيق يعرف بمضيق ليبانتو في بداية خليج كورنتوس شمال مورة .

في البحر الأبيض المتوسط والتي تشكل لسبب أو لآخر خطراً على طريق الحاج العثماني من عاصمة الدولة إسطنبول إلى الأماكن المقدسة ، حيث رأينا البحرية العثمانية تضرب الحصار على جزيرة مالطة وتؤدب قراصنتها ، ثم ترفع الحصار الذي استمر أربعة أشهر ، بعد أن تحققت الغاية منه ، ولكي لا يتأثر رجال البحرية العثمانية من تقلبات فصل الشتاء القارس ، ولاسيما أن المهمة قد نجحت كما خُطط لها ، وحين اعترضت مراكب رهبان مالطة قافلة بحرية عثمانية في طريقها إلى الحج ، وقتلوا الرجال وسبوا الغلمان والنساء ، وقاموا بتنصير الغلمان ، كان غضب السلطان العثماني قوياً ومؤثراً ، فأمر بتجهيز عمارة بحرية قوية لفتح جزيرة كريت ذات الموقع الجغرافي والحربي الفريد في البحر المتوسط ، ولتوسطها في الطريق بين الآستانة والأماكن المقدسة ، وضرب الحصار على أهم ثغور الجزيرة وتم فتح أهم مدنها ، ثم ضرب الحصار على عاصمة الجزيرة ، وبعد صراع طويل دام نحو خمسة وعشرين عاماً حول هذه الجزيرة ومدنها وقلاعها الحصينة أعلنت فيها العصيان ضد الدولة العثمانية ، وسعت إلى إغلاق مضيق الدردنيل في وجه البواخر العثمانية كي لا تتجه إلى عاصمة الدولة ولا تخرج منها ، مما يعني أن طريق الحاج البحري وطرق التجارة البحرية أصبحت معرضة للأخطار ، إن لم تتمكن الدولة العثمانية من ضم هذه الجزيرة ومدنها ، وبالفعل رجحت الكفة لصالح البحرية العثمانية فتنازلت جمهورية البندقية عن جزيرة كريت للدولة العثمانية عدا ثلاث قرى في شمال الجزيرة هي - قره بوزا وسودا وسينالونجا^(١) ، إن هذا الفتح العثماني الكبير لجزيرة كريت وقلاعها الشهيرة ، بعد تلك الحادثة الغريبة التي قام بها قراصنة ورهبان مالطة ضد قافلة الحاج العثمانيين ، يُعطي الدليل الواضح والصريح على سلامة المنهج الذي تسير عليه الدولة العثمانية في فتوحاتها لتلك الجزر التي تحتل موقعاً إستراتيجياً على طريق الحاج العثماني ، وطريق التجارة العثمانية في البحر المتوسط وإلى عاصمة الدولة إسطنبول .

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق، الصفحات ٢٤٩، ٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩٨ .

يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص ١١١ - ١١٤ .

أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص ٤٩-٥٠ ، المصدر السابق .

٥٦٦ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

لقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في ماهية هذه الفتوحات ، بيد أن الرأي الأرجح والمنطلق من القراءة التاريخية المترنة والمتوازنة ، يرى أن تلك الفتوحات كان مرتكزها الأساسى تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ولاسيما أن موانئ البحر الأحمر والموانئ الشرقية من البحر المتوسط - أى سواحل الشام والأناضول- وكذلك الموانئ المصرية ، وكل هذه المراكز البحرية أصبحت تحت سيطرة ونفوذ الدولة العثمانية ، فهذا هو السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني (٩٨٢-١٠٠٣هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥م) يبعث بأوامره القوية إلى قائد الأسطول العثماني في البحر المتوسط : " ... وإننى أمرم بأن تراقبوا طريق السفن بين قبرص والإسكندرية والطريق إلى الجزائر ، وألا تسمحوا للكفار أن يعتدوا على السفن المصرية أو أية سفن أو أراضٍ في مملكتي ، وعليك أن تبذل مساعيتك بحيث تعود أية سفينة تخرج إلى البحر سالمة آمنة " (١) ، ولعل تفاعل الدولة العثمانية مع هجمات البرتغاليين البحرية على مداخل البحر الأحمر الجنوبية ، وانتقال القوة البحرية العثمانية إلى هناك لمجابهة هذا الخطر البحري الجديد ، هو تأكيد لما ذهب إليه البحث من أن الدولة العثمانية كانت حريصة دائماً على تأمين الطرق البحرية التي يسلكها الحجاج إلى الأماكن المقدسة ، وإذا كان المؤرخون قد ذهبوا إلى أن التوازن الدولي قد انتقل من البر إلى البحر في القرن السادس عشر الميلادي ، فإن حماية الثغور الإسلامية ، وطريق الحاج البحري من قبل الدولة العثمانية في تلك المرحلة التاريخية الحاسمة ، هي بلا شك حقائق لا تقبل الجدل ، لأن التوازن الدولي يعكس صورة التحولات التاريخية ويعطى الدليل عليها .

إن أواخر القرن السابع عشر الميلادي كان يمثل نقطة حاسمة في قوة الدولة العثمانية البحرية ، رغم أن الدولة في تلك المرحلة كانت في حروب مع النمسا والبنديقية وبعض القوى الأوروبية البارزة والمستعدة لمواجهةها ، بيد أن مشاكل الدولة العثمانية بدأت في الازدياد مع روسيا مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو ما حدّ من

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ٣١ - حكم سلطان برقم ١٩٧ في شهر رجب سنة ٩٨٥هـ / أكتوبر ١٥٧٧م .

الفتوحات البحرية في البحر المتوسط، وقلل من أهميتها خاصة في شرق البحر المتوسط، ومع هذا كله ومع الضعف الذي بدأ يظهر على الدولة بشكلها العام إلا أن منهجية الحفاظ على طريق الحاج البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة لم تتغير، والوثائق العثمانية المحفوظة في أرشيف رئاسة مجلس الوزراء العثماني في إسطنبول تؤكد هذه الحقيقة العلمية التي ذهب إليها البحث، فهذا هو الحكم رقم ٧٩١ في أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ والموجه إلى أمير الحاج المصري إبراهيم بك من السلطان العثماني، يقول: "اعلم أيها الأمير المومى إليه بأن ذهاب وإياب من شد عزيمته لأداء فريضة الحج من الحجاج ذوى الابتهاج بالأمن والسلامة وحفظهم وحراستهم وحمايتهم وصيانتهم على ما ينبغي أمر معظم من أمور مصالح المُلْك والملة ومن مهام اشتغال الدولة والسلطنة، وقد أحيل على عاتقك وفوض إليك حماية وصيانة الحجاج ذوى الابتهاج الناهضين من مصر القاهرة، فكن على بصيرة وعلى يقظة وأمن مسالك الحج بعون الله واسهر على حفظ الحجاج وصيانتهم فلا يلحق بفرد منهم أذى وإبذل قصارى جهدك على ذهابهم وقبولهم برفاهية حال وفراغ بال" (١).

وفي حكم آخر إلى والى مصر من السلطان العثماني تأكيد واضح على أهمية تأمين الأسلحة والمعدات والذخيرة العسكرية اللازمة لتأمين السفن القادمة والمغادرة من وإلى مينائى ينبع وجدة، لا سيما أن هذه السفن تنقل الحجاج القادمين لأداء فريضة الحج (٢)، ليس هذا فحسب وإنما كان هناك اهتمام من الدولة العثمانية بتأمين أفضل المراكب للحجاج القادمين من عاصمة الدولة، ففي الأمر السلطاني الصادر إلى قائم مقام الآستانة وإلى القبودان باشا توجيه صريح بتجهيز السفن الكبيرة والجديدة الموجودة في موانئ العاصمة إسطنبول وحتى لو لم تكن سفنا عثمانية خاصة أو أميرية،

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٠٤ - حكم سلطان برقم ٧٩١ أوائل شهر رجب سنة ١١٠٤هـ / أوائل سنة ١٦٩٣ م .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١٨٠ - حكم سلطان برقم ٦٨٢ في أواخر ربيع الثاني سنة ١١٠٩هـ .

٥٦٨ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين واستئجارها للحجاج وإرسال قوة عسكرية لحمايتها حتى تصل إلى الموانئ المصرية في أمن وأمان لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد المصطفى ﷺ^(١) .

من هنا يتأكد لنا أن الدولة العثمانية لم تَغفَلْ في أى يوم من الأيام عن تأمين طريق الحاج البحري من عاصمة الدولة - إسطنبول - أو أى ميناء من موانئها الكثيرة إلى الحرمين الشريفين ، وكان ذلك هو ديدنها وتعتبره فخراً لها حتى في مراحلها التاريخية المتأخرة لم تَغفَلْ عنه ، فهي تطلب من قائم مقام ينبع البحر على شاطئ البحر الأحمر أن يبذل قصارى جهده وكل طاقته لحماية الحجاج القادمين إلى الميناء ، فهذا العمل من واجبات الدولة المقدسة^(٢) ، وفي نفس الوقت تؤكد على والى الحجاز أن يُكَلِّف قادة السفن العثمانية في البحر الأحمر بتعليق العلم العثماني ذى الهلال والنجم عند سفرها وقدموها لأهمية أمنها وأمن القادمين عليها من الحجاج المسلمين^(٣) .

* * *

(١) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر المهمة رقم ١١٠ - حكم سلطان برقم ٢٥٤

في أواخر جمادى الآخرة سنة ١١١٠هـ .

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٣ صفحة ١٤٤ في ٤ صفر

سنة ١٢٩٠هـ -

(٢) وثيقة عثمانية - الأرشيف العثماني - إسطنبول - دفتر العينيات رقم ٨٧٦ صفحة ١٢ في ١٠ ربيع

الأول سنة ١٢٩٢هـ .

الوثائق والمصادر والمراجع

(أ) - الوثائق :

- ١- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المالية رقم ٢٠١١٥ - دفتر الأحكام المالية .
- ٢- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٧ - فرمان رقم ٣٧٣ .
- ٣- الأرشيف العثماني - اسطنبول - كيه جي - رقم ٢٣٠ - دفتر الرؤوس - صحيفة رقم ١٨٧ .
- ٤- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ٣١ - الحكم السلطاني رقم ١٩٧ .
- ٥- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٣٤٨ .
- ٦- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٠٤ - الحكم السلطاني رقم ٧٩١ .
- ٧- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١١٠ - الحكم السلطاني رقم ٢٥٤ .
- ٨- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر المهمة - دفتر رقم ١٨٠ - الحكم السلطاني رقم ٦٨٢ .
- ٩- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٣ .
- ١٠- الأرشيف العثماني - اسطنبول - دفاتر العينيات - رقم ٨٧٦ .

(ب) - المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- ١- إبراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .
- ٢- أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- ٣- أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ؛ تحقيق د. عبداللطيف الحميد ، ط ١ ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ٤- السيد أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، ط ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م نشر مؤسسة الحلبي وشركاه - القاهرة .
- ٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م دار الشروق ، القاهرة .
- ٦- أحمد فريدون بك : منشآت سلاطين ، نُشر في إسطنبول ، سنة ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م .
- ٧- أحمد بن محمد الحموي : فضائل سلاطين بين عثمان ، تحقيق د. محسن محمد سليم ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م - دار الكتاب الجامعي ، القاهرة .

٥٧. ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين

٨- أرغون : المصاييح المنيرة في تواريخ القرون الأخيرة، ترجمة حنفي هند بن إسماعيل ب.ت.ن.

٩- أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون : الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوى ، ط ١٩٩٩م مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - إستانبول .

١٠- برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة د.سيد رضوان على ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

١١- جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، منشورات عالم الكتاب .

١٢- خلف بن دبلان الوديناني : الفتح العثماني لجزيرة رودس ، معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

١٣- خليل ساحلى أوغلى : من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، إسطنبول ، ٢٠٠٠م .

١٤- رزق الله منقريوش الصدفى : تاريخ دول الإسلام ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ/ ١٩٠٨م .

١٥- روبر مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، ط ١ ، ١٩٩٣م ، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة .

١٦- زياد أبو غنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

١٧- زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٧م .

١٨- سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، ط ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ، مكتبة الملك فهد الوطنية - بالرياض .

١٩- صولاق زادة : تاريخ صولاق زادة ، مطبعة محمود بك ، الآستانة ، ١٢٩٨هـ ، مكتبة أوقاف الديانة ، إسكودار ، إسطنبول .

٢٠- عاشق باشا زاده : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، ١٣٣٢هـ ، مطبعة عامرة .

- ٢١- عبد الرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار الجليل ، بيروت ، د.ت.ن.
- ٢٢- عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي : منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق د. فيصل بن عبد الله الكندري ، الحولية الثامنة عشرة من حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
- ٢٣- عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .
- ٢٤- عبدالقادر دده أوغلو : السلاطين العثمانيون ، ترجمة محمد جان ، دار سحنون للنشر ، تونس ١٩٩٢م .
- ٢٥- فيصل بن عبد الله الكندري : تحقيق مخطوط " منح البرية في فتح رودس الأبية " ، ترجمة للرسالتين المنقولة عن : جلال زادة مصطفى جلي : طبقات الممالك ودرجات المسالك ، مكتبة متحف طوب قابي سراي إسطنبول .
- ٢٦- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقله إلى العربية - نبيه أمين فارس منير البعلبكي ، الطبعة التاسعة ١٩٨١م ، دار العلم للملايين - بيروت .
- ٢٧- كلشني : كلشن معارف ، ط ١٢٠٢هـ ، إسطنبول - مكتبة أوقاف الديانة الإسلامية ، كتب خانة ، اسكودار ، إسطنبول .
- ٢٨- محمد بن أحمد بن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٢٩- محمد أمين المكي : الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين ، إسطنبول ، مطبعة عثمانية ، ١٣١٨هـ .
- ٣٠- محمد بن أبي السرور البكري الصديقي : نصره أهل الإيمان بدولة آل عثمان ، دراسة وتحقيق د. يوسف بن علي بن رابع الثقفي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة .
- ٣١- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م - دار القلم للطباعة والنشر - دمشق .
- ٣٢- محمد بن عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن - وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، دار التراث - القاهرة .

- ٥٧٢ ————— جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلى الحرمين الشريفين
- ٣٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د.إحسان حقي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار النفائس - بيروت .
- ٣٤- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، وقدم له د. أحمد عزت عبد الكريم ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت.ن.
- ٣٥- محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ط ١٩٧٦م.
- ٣٦- محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، منشورات الفاخرية بالرياض ، ب.ت.ن.
- ٣٧- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٣٨- يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجاي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، دار البصائر - دمشق .

(ج) - المراجع الغير عربية :

- 1- F.R.UNAT-M.A. " محمد نشري : جهان نما " تاريخ نشري " Koymen, Ankara , 1949 , 1957 , TTK.Basimevi , C.II.
- 2- Munir Atalar : Osmanli Devletinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari, Ankara , 1991, Diyanet -1 sleri Başkanligi Yayinlari
- 3- Osmanli Devletinin-Merkez ve Bahriye Teşkilâti ismail Hakki Uzuncarsili-C.3.Ankara - 1988
- 4- Sydney Nettleton Fisher : The Middle East History , London , Second Edition , 1971